الدولة العباسية

يرجع نسبُ العباسيين إلى العباس بن عبد المطلب ، عم النبي ﷺ ، وكان يكبره بثلاث سنوات فقط . وعلى الرغم من أنه كان أقرب الناس إلى النبي ، إلا إنه لم يسلم إلا عند فتح مكة . بل إنه حارب الرسول في صفوف كفار قريش في غزوة بدر . حتى وقع بالأسر ، وبالرغم من ذلك فإن النبي دافع عن عمه ، فصار يصيح بالمقاتلين : " من لقي العباس بن عبد المطلب ، عم النبي ، فلا يقتله ، فإنما خرج مستكرهاً " .

وبالرغم من ذلك فقد أبي الرسول إلا أن يفدي العباس نفسه بالمال ، مثله في ذلك مثل كل كفار قريش الذين وقعوا في الأسر . وقد قال له حين سيق إليه أسيراً : " ياعباس، افدِ نفسك ... " .

فقال العباس : " يا رسول الله إني كنت مسلماً ، ولكن القوم استكرهوني " .

فقال النبي : " الله أعلم بإسلامك ، إن يكُ ما تذكر حقاً فالله يجزيك به ، فأما ظاهر أمرك فقد كان علينا ، فافد نفسك " .

إلا إن هناك موقفاً آخر يرينا مدى قرب العباس للنبي ، وإلى أي مدى ذهب العباس في مناصرة النبي ، فقد لعب العباس بن عبد المطلب دوراً كبيراً في عقد البيعة بين النبي وأهل المدينة ، وها هو واقف بينهم يصيح :

" يا معشر الخزرج ، إنكم قد دعوتم محمداً إلى ما دعوتموه إليه ، ومحمد من أعز الناس في عشيرته ، يمنعه والله من كان منا على قوله منعة للحسب والشرف ، وقد أبى محمد الناس كلهم غيركم ، فإن كنتم أهل القوة وجلد وبصر بالحرب واستقلال بعداوة العرب قاطبة ، فإنها سترميكم عن قوس واحدة ، فارتأوا رأيكم وائتمروا أمركم ، ولا تفترقوا إلا عن ملأ منكم واجتماع ، فإن أحسن الحديث أصدقه ... " .

وقد كان الرسول يحب عمه العباس ، وينزله منزلة كريمة بعد أن أسلم . وقد ظل العباس يتمتع بهذه المنزلة لدى الخلفاء أبي بكر وعمر وعثمان ، بل إن الأمويين أنفسهم كرموه وأجلوه ... وذلك راجع إلى علاقة صداقة قديمة وطيدة كانت تربط بين العباس وبين أبي سفيان بن حرب ، وقد كانت هذه الصداقة هي التي جعلت العباس

يتوسط لأبي سفيان لدى النبي ، فأمنه ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك فأمن حتى من يدخل داره يوم فتح مكة بقولته الشهيرة : " مَن دخل دار أبي سفيان فهو آمن " .

وكان العباس بن عبد المطلب هو الذي حمل أبا سفيان إلى النبي ليعقد له الأمان ، فلما رأى الرسول أبا سفيان قال له : " ويلك يا أبا سفيان ، ألم يأنِ لك أن تعلم أني رسول الله تعالى ؟ " .

فقال أبو سفيان : " بأبي أنت وأمي ما أوصلك وما أحلمك وأكرمك ، أما هذه ففي النفس منها شيء " . وهنا تدخل العباس لينقذ صديقه أبا سفيان ، فقال له : " ويلك ، اشهد بشهادة الحق قبل أن تُضرب عنقك " .

وكانت هذه العبارة كفيلة بأن تجعل أبا سفيان يعلن إسلامه .

وهكذا نرى أن العباس كان هو السبب – أو على الأقل – المحرض على إسلام أبي سفيان ، وبالرغم من ذلك تناحر العباسيون والأمويون فيما بعد ، واقتتلوا وصارت بينهم بحور دماء .

ومع أن العباس لم يطمح في خلافة النبي ؛ إلا أنه كان يطمح إلى منصب من المناصب العليا في ذاك الوقت .

فمما يذكر أن العباس قال للنبي ﷺ :

" يا رسول الله ، ألا تؤمرني على إمارة ؟ " .

فقال : " نفس تنجيها خيرٌ من إمارة لا تحصيها " .

وقد ظل الرسول يرفض كل طلب للعباس بتولي أمر من أمور الدولة .

وقد امتد العمر بالعباس حتى العام الثاني والثلاثين بعد الهجرة .

وكان للعباس عشرة أولاد . كان أعظمهم وأشهرهم ابنه عبد الله . وعبد الله بن عباس هو ذاك الصحابي الشهير ، وفقيه الإسلام الكبير ، الذي أسماه الرسول " ترجمان القرآن " ، حيث كان أعلم الصحابة بالقرآن ، وقد أسماه عمر بن الخطاب " كهل الفتيان " ، نظراً لسعة علمه على حداثة سنه .

وقد أُطلق عليه أيضاً " حبر قريش " و " حبر الأمة " . وقد ظل عبد الله بن عباس على مكانته وحظوته لدى الخلفاء الراشدين ، وكانوا جميعاً يقربونه ويأخذون برأيه .

وقد وقف عبد الله بن عباس بجانب علي بن أبي طالب ، وبايع له بالخلافة ، وكان من أقرب الناس إليه . إلا إنه بعد مقتل علي ، وانتقال سدة الحكم إلى معاوية بن أبي سـفـيان ، آثر عبد الله مهادنة معاوية ، بل وبايعه ، وذهب إلى أبعد من ذلك ، فمدحه وقال فيه :

" ما رأيت أحداً أخلق للملك من معاوية " .

وقد بايع عبد الله بن عباس أيضاً يزيد بن معاوية . وتوفي عبد الله بن عباس في العام الثامن والستين بعد الهجرة .

ولابد أن نذكر هنا أن خلفاء الدولة العباسية قد جاءوا من نسل عبدالله بن عباس .

فقد أنجب عبد الله بن عباس ولداً يدعى (علياً) ، وولد لعلي ابن اسمه محمد .

وكان محمد بن علي بن عبد الله بن عباس هو أول بني العباس الطامحين للسلطان ، العاملين في سبيله .

فمضى العباسيون في محاربة بني أمية وقتالهم . وكانت الموقعة الكبرى عند نهر الزاب الكبير عام 132 هـ . وانهزم الجيش الأموي شر هزيمة ، وفر الخليفة الأموي مروان بن محمد، حتى قُتل في مصر في العام نفسه .

وقضى العباسيون على بقية الجيش الأموي بقيادة يزيد بن هبيرة ، الذي استطاع أبو جعفر المنصور ، أخو الخليفة أبي العباس ، الانتصار عليه وتشتيت قواته ، ثم قتله في النهاية .

وهكذا دان الملك لبني العباس ، وقامت الدولة العباسية ، وانتزع أبو العباس الخلافة من بني أمية ، بعد ذلك عمل الخليفة أبوالعباس على التخلص من أبي سلمة الخلال – الملقب بوزير آل محمد – وبقتله استأثر الخليفة بالحكم خالصاً .

الخليفة السفاح

132 – 136 هـ

بعد وفاة محمد بن الحنفية عام 81 هـ ، آلت إمامة فرقة الشيعة الكيسانية إلى ابنه أبي هاشم .

وظل أبو هاشم يمارس نشاطه المعادي لحكم بني أمية ، حتى لفت هذا النشاط نظر الخليفة سليمان بن عبد الملك ، فعمل على الخلاص من أبي هاشم . فدعاه لزيارته في مقر الخلافة بدمشق ، حيث استقبله وأكرمه . وأثناء ذلك كان الخليفة قد حسم أمر غريمه إمام الشيعة الكيسانية ، وتآمر على اغتياله :

" ... فوضع عليه من وقف في طريقه فسمه في لبن ... " .

وبعد حينٍ يسري السم في بدن أبي هاشم ، فيدرك الرجل أنه هالكٌ ، فيعرج على قريبٍ له ، بموضعٍ يقال له الحميمة ، فيفضي له الإمام بالأمر كله ، ثم يموت أبو هاشم بن محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب عام 98 هـ ، لينهض بعده بالأمر محمد بن علي ابن عبد الله بن عباس .

وهكذا تكون الإمامة المذهبية والزعامة السياسية قد انتقلتا من الفرع العلوي لبني هاشم إلى الفرع العباسي ، ممثلاً في محمد بن علي حفيد عم الرسول ﷺ .

وينهض محمد بن علي بمسئولية الدعوة إلى حق آل بيت النبي ﷺ في حكم المسلمين ، عاملاً على استعادة هذا الحق من الذين اغتصبوه ، بني أمية .

ونرى محمد بن علي على قمة تنظيم سري ، يليه اثنا عشر نقيباً وسبعون داعية .

وفي عام 100 هـ . يرسل محمد بن علي " إلى الآفاق " على حد تعبير ابن الأثير . وكان هؤلاء الدعاة يجوبون تلك المناطق متخفين في زي تجار . وكان من هؤلاء الدعاة حينذاك رجل يدعى بكير بن ماهان ، والذي خلفه واحدٌ من أبرز رجال هذه الدعوة

وهو أبو سلمة الخلال . وإمعاناً في التخفي والحفاظ على سرية الدعوة كان هؤلاء الدعاة يرفعون شعاراً غامضاً وهو الدعوة " للرضا من آل البيت ".

وكان زعيم الدعوة العباسية محمد بن علي قد أولى اهتماماً خاصاً بنشر دعوته في منطقة خراسان ، وهي إقليمٌ متسع مترامي الأطراف كما يصفه ياقوت الحموي في كتابه " معجم البلدان " :

" خراسان : بلاد واسعة ، أول حدودها مما يلي العراق ، وآخر حدودها مما يلي الهند طخارستان وغزنة وسجستان وكرمان ، وليس ذلك منها إنما هو أطراف حدودها ، وتشتمل على أمهات من البلاد منها نيسابور وهراة ومرو ، وهي كانت قصبتها ، وبلخ وطالقان ونسا وأبيورد وسرخس ، وما يتخلل ذلك من المدن التي دون نهر جيحون ..." .

وعن أهل خراسان ينقل الحموي عن ابن قتيبة قوله :

" أهل خراسان أهل الدعوة وأنصار الدولة ، ولم يزالوا في أكثر ملك العجم لقاحاً لا يؤدون إلى أحد إتاوة ولا خراجاً ... " .

وهكذا وقع اختيار " محمد بن علي " على إقليم خراسان ليكون قاعدة لدعوته ، وقد أسس اختياره هذا على رؤية سياسية واضحة شرحها لدعاته قبل أن يرسلهم إلى أقاليم الدولة المختلفة ، فقال :

" أما الكوفة وسوادها فهناك شيعة علي وولده ، والبصرة وسوادها فعثمانية ، وأما الجزيرة فحرورية مارقة وأعراب كأعلاج ومسلمون أخلاقهم كالنصارى ، وأما الشام فليس يعرفون إلا آل أبي سفيان ، وطاعة بني مروان ، عداوة متراسخة وجهل متراكم ، وأما مكة والمدينة فغلب عليها أبو بكر وعمر ، ولكن عليكم بأهل خراسان فإن هناك العدد الكثير والجلد الظاهر ، وهناك صدور سليمة وقلوب فارغة لم تقسمها الأهواء ولم تتوزعها النحل ، ولم يقدم عليهم فساد ، وهم جند لهم أبدان وأجسام ومناكب وكواهل وهامات ولحى وشوارب ، وأصوات هائلة ولغات فخمة " .

وبالإضافة إلى ما تقدم فقد عانى أهل خراسان من قسوة ولاة بني أمية وفسادهم ، وكان هذا هو العامل الحاسم لانضمام أهل خراسان للدعوة العباسية ورفعهم لراياتها والقتال في سبيلها .

فقد كانت هناك عوامل سياسية واقتصادية واجتماعية جعلت غير العرب – عموماً – والفرس بالذات ، يضيقون بحكم بني أمية ، بل ويتحينون الفرص للإنقضاض عليهم للخلاص من حكمهم الظالم . فقد كوّن حكام بني أمية وأصحاب المصالح طبقة ارستقراطية عربية ، تنظر بعين الاحتقار إلى غير العرب ، فأطلقوا عليهم الموالي ، حيث كان يتحتم على غير العربى الانتساب إلى قبيلة عربية ، فيصير مولى لها ، والمولى لفظ مرادف للفظ " العبد " .

ولما كان الحال هكذا فقد حُرِّم على هؤلاء الموالي الإشتغال بالوظائف العليا في الدولة ، التي اقتصرت على الطبقة النبيلة العربية ، حتى في الحروب والغزوات كان بنو أمية يحرمون على الموالي ارتقاء ظهور الخيل ، فكانوا يحاربون راجلين .

ولم يكتف بنو أمية بذلك فحرَّموا على هؤلاء أجرهم ، كما جاء في شكوى بثها أحد الموالي للخليفة عمر بن عبد العزيز ، فقال :

" يا أمير المؤمنين عشرون ألفاً من الموالي يغزون بلا عطاء ولا رزق" .

وعلى الجانب الآخر فقد اشتط الأمويون في جمع الأموال ، حتى إنهم أعادوا فرض الجزية على من أسلم من الموالي . وفرضوا عليهم أيضاً تقديم الهدايا إلى خلفاء بني أمية ، والتي كانوا يقدمونها سابقاً للملوك الفرس . وهي ما كانت تعرف " بهدايا النوروز والمهرجان " . وقد أدت هذه الأوضاع ، وغيرها ، إلى تفشي الفساد بين ولاة بني أمية ، الذين أثروا ثراءً فاحشاً على حساب هؤلاء الموالي . ودفع الطمع هؤلاء الولاة إلى استخدام طرقاً بشعة في تحصيل الأموال ، ومما زاد الطين بلة أن خلفاء بني أمية كانوا يقرون لهؤلاء الولاة بتلك الأموال ، ثم يقاسمونهم فيها .

وللخليفة العادل عمر بن عبد العزيز مواقف عديدة حاول خلالها رفع الظلم والمعاناة عن هؤلاء الموالي . وفيما يخص أهل خراسان فقد روى ابن كثير في كتابه " البداية والنهاية " : " عزل عمر بن عبد العزيز الجراح بن عبد الله الحكمي عن إمرة خراسان ، بعد سنة وخمسة شهور ، وإنما عزله لأنه كان يأخذ الجزية ممن أسلم من الكفار ، ويقول : أنتم تسلمون فراراً منها ، فامتنعوا من الإسلام ، وثبتوا على دينهم ، وأدوا الجزية ، فكتب إليه عمر : إن الله إنما بعث محمد داعياً ، ولم يبعثه جابياً " .

وأقام عمر بن عبد العزيز والياً آخر على خراسان ، ولكنه ما لبث أن عزله هو الآخر ، ثم أقام غيره مكانه وأرسل إليه بتلك الرسالة ذات المغزى المهم التي يقول فيها : " إن للسلطان أركاناً لا يثبت إلا بها ، فالوالي ركن ، والقاضي ركن ، وصاحب بيت الله ركن ، والركن الرابع أنا . وليس من ثغور المسلمين ثغر أهم لي ولا أعظم عندي من ثغر خراسان " .

وكان جهد عمر بن عبد العزيز أثره البالغ في إعادة الأمور إلى نصابها وإشاعة العدل بين الموالي ... ولكن بانتهاء مدة خلافته القصيرة عاد الحال إلى ما كان عليه ، فتفشى الفساد بين الولاة وعم الظلم بين أرجاء البلاد مرة أخرى .

وفي مقابل كل ذلك برز الموروث الديني والسياسي للفرس (ومنهم أهل خراسان) مناهضاً لاحتكار العرب من (بني أمية) للسلطة الدينية والسياسية ، وقد تبلور ذلك في إيمان الفرس بأحقية آل بيت النبي ﷺ في إمامة المسلمين .

وبقدر اندفاع ولاة بني أمية في غيهم ، بقدر ما اندفع الموالي في اتجاه الدعوة العباسية وتأييدهم لها ، حتى أن أهل 60 قرية أعلنوا ولاءهم لواحد فقط من الدعاة العباسيين في ليلة واحدة .

وفي سنة 124 هـ : يتوفى الزعيم العباسي محمد بن علي ، بعد أن قطع شوطاً عظيماً في إرساء أمر هذه الدعوة والتمهيد للقضاء على سلطان بني أمية ، وإقامة دولة أخرى مكانها .

وكان أن خلفه ابنه إبراهيم في إمامة الدعوة العباسية ، وقد اشتهر إبراهيم بن محمد بن علي بلقب إبراهيم الإمام .

وكان من أهم الخطوات التي أقدم عليها إبراهيم الإمام : تولية قيادة الدعوة العباسية في خراسان إلى شاب صغير ، لم يتجاوز عمره التاسعة عشرة ، ثم أطلق عليه لقب : أبا مسلم (الخراساني) .

وفي سنة 129هـ : يأمر الإمام إبراهيم أبا مسلم بإظهار الدعوة العباسية في خراسان ، مع استمرار تكتم اسم الإمام ، والإبقاء على شعار " الدعوة للرضا من آل البيت " .

إلا أن أمر الإمام انكشف ، وعرف الخليفة الأموي مروان بن محمد اسمه ، وذلك حين وقع بين يديه خطاب أرسله الإمام إلى أبي مسلم . فكلف مروان بن محمد رجلاً له بإلقاء القبض على الإمام إبراهيم ، وبالفعل يُعتقل إبراهيم بن محمد ثم يُساق إلى السجن ، حيث أغتيل في سنة 132 هـ .

وكان الإمام إبراهيم ، قبل أن يمضي إلى سجنه ، قد أوصى بالإمامة لأخيه من بعده ، ونصحه باصطحاب أهله والمسير إلى الكوفة . ولم يكن خليفة الإمام إبراهيم سوى : أبو العباس ، عبد الله بن محمد بن علي ، الذي اشتهر بلقب : أبو العباس السفاح .

أثناء ذلك كان العباسيون بقيادة أبي مسلم الخراساني يستولون على المدن والقرى ، حتى استسلم لهم والي الكوفة نفسها .

ويصل أبو العباس وآله إلى الكوفة ، فيستقبله هناك أبو سلمة الخلال ، فينزله إحدى الدور ويتكتم أمره .

ولم يفعل أبو سلمة ذلك لحماية الإمام الجديد فحسب ، بل لأنه كان قد بيت النية بالعدول عن البيعة لبني العباس ، وتحويل الدعوة إلى بيت علي .

ولكن بعض أنصار الدعوة العباسية يكتشفون الأمر ، ويتوصلون إلى مكان أبي العباس ، فيمضون إليه ، ويدخلون عليه ويبايعونه بالخلافة .

وهكذا تمت البيعة بالخلافة إلى أبي العباس السفاح في شهر ربيع الأول من عام 132 الهجري .

وبعد الصلاة يقوم أبو العباس السفاح ، الخليفة الجديد ليخطب في الناس ، فيذكر ظلم بني أمية وجورهم ، فيقول :

" الحمد لله الذي اصطفى الإسلام لنفسه ، وكرمه وشرفه وعظمه ، واختاره لنا ، فأيده بنا وجعلنا أهله وكهفه وحصنه ، والقوّام به والذابين عنه والناصرين له ، فألزمنا كلمة التقوى وجعلنا أحق بها وأهلها ، وخصنا برحم رسول الله ﷺ ، وقرابته ، وأنشأنا من آبائنا ، وأنبتنا من شجرته واشتقنا من نبعته ... " .

ثم يذكر أبو العباس عدة آيات قرآنية ، يحاول من خلالها إظهار فضل آل البيت ، نذكر منها : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب : ٣٣] ، و : ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ [الحشر : 7] ، وكذلك آية : ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ ﴾ [الأنفال : 41] ، ثم يذكر أبو العباس مساوئ بني أمية واغتصابهم للحكم ، وظلمهم للناس ، كما فعل أيضاً عمه داود ، الذي صعد إلى المنبر بعده ، فأخذ يهاجم بني أمية قائلاً :

" ... تباً ، تباً لبني حرب بن أمية وبني مروان ، آثروا في مدتهم العاجلة على الآجلة ، والدار الفانية على الدار الباقية ، فركبوا الآثام وظلموا الأنام ، وانتهكوا المحارم وغشوا بالجرائم ، وجاروا في سيرتهم في العباد وسنتهم في البلاد ... " .

ويعترف داود بن علي ، عم الخليفة ، بفضل أهل خراسان على الدولة الجديدة ، فيقول :

" ... إنا والله ما زلنا مظلومين مقهورين على حقنا ، حتى أباح الله شيعتنا أهل شيعتنا أهل خراسان ، فأحيا بهم حقنا وأبلج بهم صحبتنا ، وأظهر بهم دولتنا ... " .

ويؤكد داود على أحقية آل البيت في الخلافة ، فيقول :

" ... ألا وإنه ما صعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله ﷺ ، إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد - وأشار بيده إلى عبد الله السفاح - واعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج حتى نسلمه إلى عيسى بن مريم ، عليه السلام ... " .

أما عن الدستور الذي ستحُكم به الدولة الجديدة ، فقال داود :

" ... علينا أن نحكم فيكم بما أنزل الله ، ونعمل فيكم بكتاب الله ، ونسير في العامة والخاصة بسيرة رسول الله ، ﷺ ... " .

بعد إتمام البيعة لأبي العباس ، قام الخليفة بتكليف عمه عبد الله بن علي بالقضاء على حكم بني أمية .

وبالفعل يمضي الجيش العباسي ، ليلاقي جيش مروان بن محمد قرب الموصل ويهزمه ، ويفر مروان إلى مصر ، ويلحق به العباسيون هناك ويقتلوه .

ويدخل الجيش العباسي دمشق ، لتبدأ سلسلة من حوادث الانتقام والثأر من بني أمية .

ومما يرويه المؤرخون عن ثأر بني العباس من بني أمية ، ما قام به صالح بن على بن عبد الله ، عم الخليفة أنه عندما فتح دمشق أباح القتل فيها لعدة ساعات ، واتخذ من جامعها اسطبلاً لخيله لمدة سبعين يوماً . أما الطبرى أن صالح : " ... نهب دمشق ثلاثة أيام ونقض سورها حجراً حجراً " .

وذات مرة استضاف عبد الله بن علي قوماً من بني أمية (نحو تسعين رجلاً) ، وأثناء ما كان الجميع يأكلون إذ دخل عليهم شاعر من أنصار بني هاشم ، فلما رأى بني أمية ينعمون بهذا الأمان والكرم ، ساءه ذلك ، فأخذ يذكر عبد الله بما ارتكبه بنو أمية في حق أهله ، فإذا بعبد الله ينقلب على ضيوفه :

" فأمر بهم عبد الله فضُربوا بالعمد حتى قُتلوا ، وبُسط عليهم الأنطاع ، فأُكل الطعام عليهم وهو يسمع أنين بعضهم حتى ماتوا جميعاً ... " .

كما أمر عبد الله بن علي " بنبش قبور بني أمية بدمشق ، فنبش قبر معاوية بن أبي سفـيان ، فلم يجدوا منه إلا خيطاً مثل الهباء ، ونبش قبر يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ، فوجدوا فيه حطاماً كأنه الرماد ، ونبش قبر عبد الملك بن مروان ، فوجدوا جمجمته ، وكان لا يوجد في القبر إلا العضو بعد العضو غير هشام بن عبد الملك ، فإنه وجد صحيحاً لم يبلَ منه إلا أرنبة أنفه ، فضربه بالسياط وصلبه وحرقه وذراه في الريح " .

وهو ما يؤكده الطبري فيقول بأن عم السفاح : " نبش قبور بنى أمية وأحرقهم بالنار ولما صار إلى الرصافة ، أخرج هشام بن عبد الملك من قبره وضربه مائة وعشرين سوطاً حتى تناثر ثم جمعه وأحرقه بالنار " .

***

العباسيون يغتالون وزراءهم

اغتيال أول وزير عباسي

أبو سلمة الخلال هو : حفص بن سليمان ، الفارسي الأصل ، ويرجع بعض الباحثين تسميته بالخلال إلى حي كان يسكنه بالكوفة ، عُرف بالخلالين .

وبناءً على ترشيح بُكير بن ماهان لصهره أبي سلمة الخلال ، قام الإمام إبراهيم بتعيينه رئيساً للدعوة العباسية ، ومضى أبو سلمة إلى أهل خراسان : " فصدقوه وقبلوا أمره ، ودفعوا إليه ما اجتمع قبلهم من نفقات الشيعة وخمس أموالهم ... " .

وقد ظل الخلال يعمل تحت إمرة الإمام إبراهيم إلى أن اغتيل الأخير ...

ولما أوصى الإمام إبراهيم بالأمر لأخيه أبي العباس السفاح سنة 131 هـ ، انتقل أبو سلمة لخدمة أبي العباس السفاح ، إلى أن قامت الدولة العباسية ، فعينه أبو العباس وزيراً له .

ويرجع سبب اغتيال أبي سلمة الخلال إلى اتهام العباسيين له بخيانتهم ، ومحاولة نقل الخلافة إلى البيت العلوي ، وكان عظم مكانة أبي مسلم الخراساني ، وكذلك دور أهل خراسان في إقامة الدولة العباسية ، السبب في عدم إقدام الخليفة العباسي على اغتيال أبي سلمة الخلال .

وهكذا ، كان لابد من استدراج أبي مسلم الخراساني نفسه للقيام بهذا العمل ...

فيرسل أبو العباس السفاح إلى أبي مسلم الخراساني يستشيره في أمر أبي سلمة الخلال ...

" ... وكتب إلى أبي مسلم يعلمه رأيه فيه ، وما كان همّ به من الغش ... " .

وذكر في كتابه : " إني لا أقدم ولا أؤخر إلا برأيك " .

وبطبيعة الحال كان لابد أن يوافق أبو مسلم رأي الخليفة في اتهام أبي سلمة الخلال بالخيانة ، فرد أبو مسلم رداً لابد منه : " إن كان أمير المؤمنين اطلع على ذلك منه فليقتله ... " .

واستكمالاً للخطة ؛ يكتب السفاح إلى أبي مسلم أن يبعث إليه من يقوم بتنفيذ مهمة قتل الخائن . فيبعث أبو مسلم رجاله إلى السفاح الذي يحتال على أبي سلمة الخلال ، ويعلن عفوه ورضاه عنه ويدعوه إليه ، ويروح الخلال إلى فخ أحكم حبكه .

وبعد أن ينفض الجمع ، وقبل أن تطلع الشمس ، يمضي الخلال إلى بيته وحيداً ، فينقض عليه المتآمرون ويغتالوه في رجب سنة 132 هـ ، وبعد اغتياله روج القصر إشاعة اغتيال أبي سلمة الخلال على يد الخوارج .

***

الخليفة المنصور

136 – 158 هـ

انتقلت الخلافة إلى أبي جعفر المنصور ، أخي الخليفة السابق أبي العباس السفاح ، سنة 136 هـ .

وما كاد المنصور يتسلم السلطة حتى يبدأ في تصفية مراكز القوة داخل دولته . وكان أن بدأ بعمه عبد الله بن علي . ويبدو أن المنصور قد أدرك قوة عمه ، فخاف أن ينازعه في الحكم . فقد قال لأبي مسلم الخراساني :

" أتخوف من شر عمي عبد الله بن علي وشغبه علي " .

وقد صح توقع المنصور . إذ سرعان ما خرج عليه عمه عبد الله ، فكلف الخليفة أبا مسلم الخراساني بقتال عبد الله بن علي .

وقد شاء المنصور استخدام الحيلة مع عمه ، إلا إنه لم يفلح ، وهكذا صارت الحرب بين الخليفة وعمه . والتقى جيش الخليفة بقيادة أبي مسلم بجيش عبد الله بن علي ، واقتتل الفريقان قتالاً شديداً مريراً إلى أن انتصر أبو مسلم على عبد الله ، وفر عبد الله إلى العراق ، حيث اختفى لفترة عند أخيه بالبصرة .

ولكن في العام نفسه كان أبو جعفر المنصور قد قرر التخلص من أبي مسلم الخراساني نفسه :

كان أبو جعفر المنصور هو المحرض الدائم لأخيه الخليفة أبي العباس السفاح على الخلاص من أبي مسلم الخراساني ، وتصفيته كأكبر مركز قوة داخل جهاز الدولة العباسية ، إذ قال لأخيه ذات مرة :

" لست خليفة ولا أمرك بشيء إن تركت أبا مسلم ولم تقتله ... " .

وليس غريباً على رجل محنك مثل أبي مسلم الخراساني أن ينتابه نفس الهاجس ، وهو ما نقرأه في رسالته إلى أبي جعفر المنصور :

" ... وقد كنا نروى عن ملوك آل ساسان أن أخوف ما يكون الوزراء إذا سكنت الدهماء ... " .

ويلح أبو جعفر على أخيه أن يقتل أبي مسلم ، فيقول له : " يا أمير المؤمنين أطعني واقتل أبا مسلم " .

ثم يحذره : " أخاف والله إن لم تتغده اليوم أن يتعشاك غداً ... " .

ولا يكتفي أبو جعفر بذلك ، بل يرسل لأخيه بطريقة اغتيال أبي مسلم الخراساني ، فيقول : " إذا دخل عليك وحادثته وأقبل عليك ؛ دخلتُ فتغفلته فضربته من خلف ضربة أتيت بها على نفسه " .

ولكن أبا العباس يتخوف من قتل رجل له مثل هذا الشأن ، فيقول لأخيه : " عزمت عليك ألا كففت عن هذا " .

ولما تصير الأمور إلى أبي جعفر المنصور ، ويصبح الآمر الناهي في شئون الدولة العباسية، يعزم على قتل أبي مسلم الخراساني ... ويظل يتحين الفرص للقضاء عليه ، ويحاول المنصور استدراج الخراساني إلى العاصمة ... ولكن أبا مسلم السياسي الضليع الواعي بدرس التاريخ ؛ لا يلبي دعوة الخليفة القاتلة ... فيرد عليه قائلاً : " ... فنحن نافرون من قربك حريصون على الوفاء بعهدك ما وفيت ، حريصون بالسمع والطاعة ،

غير أنها من بعيد ، حيث تتقارنها السلامة . فإن أرضاك ذاك فأنا كأحسن عبيدك . فإذا أبيت إلا أن تعطي نفسك إرادتها نقضت ما أبرمت من عهدك ضناً بنفسي ... " .

ولكن الخليفة لا يعدم الحيلة ، فينتقي أقرب الناس إلى نفس أبي مسلم ، وهو ولي عهده في ذات الوقت ، عيسى بن موسى ، ويرسله إلى الخراساني ، وينجح عيسى بحسن نية في حمل أبي مسلم إلى أبي جعفر ... ويدخل أبو مسلم قصر الخليفة حيث كان قتلته في انتظاره ...

الطبري يصف لنا المشهد الأخير في حياة أبي مسلم الخراساني : " إن عثمان بن نهيك ضرب أول ما ضرب ضربة خفيفة بالسيف ، فلم يزد على أن قطع حمائل سيفه ، فاعتقل بها أبا مسلم ، وضرب شبيب بن واج رجله واعتوره بقية العصابة حتى قتلوه ... والمنصور يصيح بهم : اضربوا قطع الله أيديكم ... " ، ودخل عيسى بن موسى بعد اغتيال أبي مسلم على المنصور يسأله عن صاحبه ، فيقول أبو جعفر له : " قد كان هاهنا آنفاً " .

فقال عيسى : " يا أمير المؤمنين قد عرفت طاعته ونصيحته ورأي الإمام إبراهيم كان فيه " .

فقال : " يا أندل ، والله ما أعلم في الأرض عدواً أعدى لي و لك منه ، ها هو ذاك في البساط " .

وبعد ذلك يخرج الخليفة إلى الملأ ليعلن بنفسه الخلاص من أبي مسلم زاعماً خيانته ...

وكان أن نشب صراع آخر داخل البيت العباسي نفسه بين الخليفة وبين ابن أخيه عيسى بن موسى . وذلك بعد أن نزع الخليفة ولاية العهد من ابن أخيه وجعلها لابنه المهدي . وقد حاول المنصور تبرير هذا الأمر فأرسل الخليفة رسالة مطولة إلى عيسى بن موسى ، ذكر فيها حب الناس لابنه المهدي وقدم الخليفة حجة دينية يقطع بها الطريق على عيسى ، فيقول :

" ... أيقنت نفس أمير المؤمنين أن ذلك أمر تولاه الله وصنعه ، لم يكن للعباد فيه أمر ولا قدرة ، ولا مؤامرة ولا مذاكرة ، للذي رأى أمير المؤمنين من اجتماع الكلمة ، وتتابع العامة ، حتى ظن أمير المؤمنين أنه لولا معرفة المهدي بحق الأبوة ، لأفضت الأمور إليه . وكان أمير المؤمنين لا يمنع ما اجتمعت عليه العامة ولا يجد مناصاً عن خلاص ما دعوا إليه ، وكان أشد الناس على أمير المؤمنين في ذلك الاقرب فالأقرب من حاجته وثقاته من حرسه وشرطه ، فلم يجد أمير المؤمنين بداً من استصلاحهم ومتابعتهم ، وكان أمير المؤمنين وأهل بيته أحق من سارع إلى ذلك وحرص عليه ، ورغب فيه وعرف فضله ، ورجا بركته ، وصدق الرواية فيه ، وحمد الله إذ جعل في ذريته مثل ما سألت الأنبياء قبله إذ قال العبد الصالح : ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦ ﴾ [مريم : 5 – 6] ، فوهب الله لأمير المؤمنين، ثم جعله تقياً مباركاً مهدياً " .

وهنا يستخدم عيسى بن موسى نفس الحجة ، أي " المشيئة الإلهية "، ويرد بها على أبي جعفر قائلاً :

" ... أما بعد ، فقد بلغني كتابك تذكر فيه ما أجمعت عليه من خلاف الحق ، وركوب الإثم في قطيعة الرحم ، ونقض ما أخذ الله عليه من الميثاق من العامة بالوفاء للخلافة ، والعهد لي من بعدك ، لتقطع بذلك ما وصل الله من حبله ، وتفرق بين ما ألف الله جمعه ، وتجمع بين ما فرق الله أمره مكابرةً لله في سمائه ، وحولاً على الله في قضائه ، ومتابعة للشيطان في هواه ، ومن كابر الله صرعه ، ومن نازعه قمعه ، ومن كره عن شيء خدعه ، ومن توكل على الله منعه ، ومن تواضع لله رفعه . إن الذي أسس عليه البناء ، وخط عليه الحذاء من الخليفة الماضي عهد لي من الله ، وأمر نحن فيه سواء ..." .

وإزاء هذا الرد ، كان على الخليفة أن يكظم غيظه ويتبع مسلكاً آخر تجاه عيسى ولي عهده . ولكنه ظل مصمماً على الوصول إلى هدفه ، حتى تمّ له ما أراد من خلع عيسى ابن موسى ، وعقد الولاية لابنه المهدي .

أما عن حال الشعب بعد انقضاء عهدين في الدولة العباسية ، فيكفينا في هذا المقام أن نترك أبا جعفر المنصور نفسه يصف حالة رعيته ، وقد أوجز فقال مخاطباً ابنه المهدي :

" إني تركت الناس ثلاثة أصناف : فقيراً لا يرجو إلا غناك وخائفاً لا يرجو إلا أمنك ، ومسجوناً لا يرجو إلا الفرج منك " .

وكان أن توفي المنصور إثر مرض ألم به ، فمات عن عمرٍ يناهز الستين عاماً .

وقد رأينا اهتمام أبي جعفر بإسداء النصح لابنه ، إلا أنه لم يقصر اهتمامه بتوجيه ابنه نظرياً فحسب ، بل عمل على تنشئته وتربيته عملياً ليقود الدولة من بعده . فجعله يشترك في الحروب والغزوات وجعله والياً ...

حتى إذا مات الخليفة أبو جعفر كان المهدي خليفة جديراً بهذا المنصب ، مدرباً عليه ، مسلحاً بكفاءة وخبرة وتجربة .

***

الزنادقة هم أتباع ماني ، الذي زعم أنه أتى بدين جديد مخالفاً دين حكام فارس أي دين زرادشت . فلما رأى الحكام في دين ماني خطراً يهدد مصالحهم حاربوا دين ماني واعتبروا أتباعه ملحدين وصارت كلمة زنديق تطلق على المؤمنين بتعاليم ماني .

ومما يروي عن بدايات ظهور ماني أن أباه " فاتك " كان يتعبد ذات يوم ، فإذا بصوت يأتيه من الهيكل يحذره قائلاً : يا فاتك لا تأكل لحماً ، يا فاتك لا تشرب خمراً ، يا فاتك لا تنكح بشراً .

أما زوجة " فاتك " فكانت ترى ـ أثناء حملها بماني ـ بشائر تنبئ بعلو قدر جنينها وعظم شأنه فكانت ترى كأن أحداً يأخذ " ماني " ويصعد إلى السماء . ولما ولد " ماني" صار ينطق بالحكمة ...

فلما بلغ الثانية عشرة من عمره أتاه الوحي وقال له : " اعتزل هذه الملة فلست من أهلها ، وعليك بالنزاهة ، وترك الشهوات ، ولم يأن لك أن تظهر لحداثة سنك " .

فلما بلغ ماني الرابعة والعشرين أتاه الوحي ثانية وقال له : " عليك السلام ، ماني ، مني ومن الرب الذي أرسلني إليك واختارك لرسالته ، وقد أمرك أن تدعو بحقك ، وتبشر ببشرى الحق من قبله وتحتمل في ذلك كل جهدك " .

فذعن ماني لأمر ربه وخرج مبشراً برسالته ـ يوم ارتقى سابور بن أردشير عرش فارس ـ وقال إنه النبي الذي بشر به عيسى بن مريم ، وإنه يؤمن بالشرائع والأنبياء ، وإن أول من بعثه الله بالعلم والحكم كان " آدم " أبو البشر، وتلاه شيث وجاء من بعده نوح فإبراهيم، ثم بعث الله بالبردة إلى أرض الهند وزرادشت إلى أرض فارس والمسيح إلى أرض الروم والمغرب ... ثم خاتم النبيين إلى أرض العرب . " وقد فرض ماني على أصحابه العشر في الأموال ، والصلوات الأربع في اليوم والليلة ، والدعاء إلى الحق ،

وترك الكذب والسرقة والقتل والزنا والبخل والسحر وعبادة الأوثان وأن لا يأتي على ذي روح ما يكره أن يؤتى إليه بمثله " .

ثم طاف " ماني " البلاد داعياً إلى دينه الجديد حتى وصل الهند والصين .

وكان ملك فارس قد سمع بماني وبدعوته فعزم على الخلاص منه والفتك به ، إلا أن " ماني " استطاع الوصول إلى أخ الملك واستمالة إليه ، فتوسط لدى الملك فدعاه إلى بلاطه ، فلما دخل " ماني " على الملك " سابور " رأى هالات النور تكتنفه ، فعظم قدره وأجله ولبي له طلبه .

وعن نشأة العالم قال ماني : مبدأ العالم كونان أحدهما نور والآخر ظلمة ، كل واحد منهما منفصل عن الآخر فالنور هو العظيم الأول ... وذلك الكون المنير مجاور للكون المظلم لا حاجز بينهما ... " .

وللنور خمسة أجناس : أربعة منها أبدان وخامسها روحها ، أما الأبدان فهي : النار والنور والريح والماء ، أما الروح التي تسري في هذه الأبدان وتحركها فهي النسيم .

وكذلك للظلمة خمسة أجناس : أربعة منها أبدان هي : الحريق والظلام والسموم والضباب ، وروح هذه الأبدان هي الدخان ...

وللنور جوهر حسن فاضل كريم صاف نقي طيب الريح حسن المنظر .

أما جوهر الظلمة فقبيح ناقص لئيم كدر خبيث منتن الريح قبيح المنظر .

وللنور نفس خيرة كريمة نافعة عالمة .

أما نفس الظلمة فشريرة لئيمة سفيهة ضارة جاهلة .

وفعل النور : الخير والصلاح والنفع والسرور والترتيب والنظام والاتفاق .

بينما فعل الظلمة هو الشر والفساد والضر والغم والتشويش والتبشير والاختلاف .

ثم حدث أن أبدان الظلمة تشاغلت عن زوجها ، فلما نظرت ورأت النور أمرت روح الظلمة أبدانها على ممازجة النور فلبت أمرها لفطرتها على الشر ، فلما رأى النور ذلك ،

أرسل ملكاً من ملائكته بالأجناس الخمسة ، فاختلطت الخمسة النورية بالخمسة الظلامية وخالط الدخان ـ روح الظلمة ـ النسيم ـ روح النور .

وهكذا هي الحياة والروح في عالمنا من النسيم ، أما الهلاك والآفات فمن الدخان .

وما في العالم من منفعة وخير وبركة فمن أجناس النور وما من ضر وفساد وشر فمن أجناس الظلمة . فلما رأى ملك النور هذا الامتزاج أمر ملكاً من ملائكته فخلق العالم على هذه الهيئة لتخلص أجناس النور من أجناس الظلمة .

فكانت مهمة الشمس والقمر والنجوم هي استخلاص أجزاء النور من أجزاء الظلمة .

فالشمس تستخلص النور الممتزج بشياطين الحر والقمر يستخلص النور الممتزج بشياطين البرد . ولا يزال النسيم وكذلك أجزاء النور جميعها آخذة في الارتفاع إلى عالمها ، أما أجزاء الظلمة فآخذة في النزول حتى ينفك الامتزاج وتخرج أجزاء النور من أجزاء الظلمة وتعود هذه إلى كلها وترجع تلك إلى كلها ، ولما يتم هذا تكون القيامة والمعاد .

ومما يساعد على تخليص أجزاء النور ورفعها : التسبيح ، والتقديس والكلام الطيب وأعمال البر ، فترتفع بذلك أجزاء النور إلى فلك القمر فيقبلها من بداية الشهر إلى نصفه فيمتلئ فيصير بدراً ، ثم يؤدي إلى الشمس حتى آخر الشهر فترتفع الشمس ذلك على النور الذي فوقها حتى يصل إلى النور الأعلى الخالص . ويستمر هذا الحال حتى تستخلص أجزاء النور كلها من هذا العالم ولا يبقى منها إلا النذر اليسير الذي لا تستطيع الشمس أو القمر استخلاصه ... وهنا يرتفع الملك الذي يحمل الأرض ويدع الملك الذي يجذب السموات فيهوى الأعلى على الأسفل ، فتوقد النار ليضطرم الأعلى والأسفل ويظلان على هذا الحال حتى يستصفى النور .

وكان أن امتدت دعوة ماني إلى بلاد العرب ، إبان حكم العباسيين وأخذت هذه الدعوة في الانتشار حتى تصدى لها الخليفة أبو جعفر المنصور وكان أشهر من قتل في عهد الخليفة المنصور ـ بدعوى أنه زنديق :

عبد الله بن المقفع

وعبد الله هو اسمه أما المقفع فصفة غلبت على أبيه " المقفع بن المبارك " . حيث ضربه الحجاج بن يوسف ضرباً شديداً حتى تقفعت يده .

وعبد الله بن المقفع فارسي الأصل ، ظل على دين أبيه الزرادشتي حتى صار كاتباً لعيسي بن علي ، عم الخليفة أبي جعفر المنصور، فأسلم على يديه .

ومما يروي عن شهامته أنه كان صديقاً لعبد الحميد الكاتب ، وزير الخليفة الأموي مروان بن محمد ، فلما قتل مروان شاء القوم قتل وزيره أيضاً . فتوجهوا إلى دار عبد الحميد الكاتب وكان معه في هذه الأثناء صديقه عبد الله بن المقفع ، فلما اقتحموا عليهما الدار لم يعرفوا أي الاثنين يكون عبد الحميد الكاتب ، فسألوهما :

" أيكما عبد الحميد ؟ ".

فلما رأى ابن المقفع الغدر في عيون الناس وبان له تربصهم بصاحبه ، شاء درء الخطر عن صديقه فقال : " أنا " .

ولكن عبد الحميد الكاتب أبي أن يضحي صديقه بنفسه من أجله فأفصح عن شخصه .

ورفض ابن المقفع بدوره أن يقتل صاحبه غيلة ... وظل كل منهما يدعي أنه المقصود ، حتى اهتدى عبد الحميد إلى حيلة ينقذ بها خليله الوفي فقال لطالبي دمه :

" ترفقوا ، فإن في علامات ، فوكلوا بنا بعضكم ، ويمضي بعض يذكر تلك العلامات لمن وجه بكم " .

وكان أن استدل القوم على عبد الحميد الكاتب وأخذوه .

وكان ابن المقفع أيضاً حكيماً بليغاً يعرف اللغتين العربية والفارسية .

فترجم عن اللغة الفهلوية كتاب " كليلة ودمنة " . كما أنه ألف كتباً أخرى مثل : " الأدب الصغير " و " الأدب الكبير" و " الدرة اليتيمة " .

أما كتاب " رسالة الصحابة " ـ أي صحابة الخلفاء والولاة ـ فقد نظمه درساً بليغاً في نظام الحكم ، وكان مبتغاه من هذا الكتاب أن يكون لولي الأمر رأي يهتدي به في الإصلاح وأن يتخير أعوانه ليساعدوه على القيام بهذا الإصلاح .

وقد رأى ابن المقفع أيضاً أن هناك نصوصاً دينية يجب على الناس وولاة الأمر طاعتها وعدم مخالفتها إلا أن هناك مسائل عديدة لم يرد فيها نص ديني مثل تنظيم أمور الدولة ـ قياساً على الزمن والمكان ـ فيجب ألا تترك هذه الأمور بلا ضابط بل ويجب أن يقول الناس رأيهم فيها .

وقد رأى ابن المقفع في كتابه وجوب رجوع ولاة الأمور المسائل المتنازع فيها إلى العدل والمصلحة ، حيث إن الرجوع إلى العدالة لهو أجدر وأحق من الأخذ بالقياس كقاعدة جامدة لا تتغير ولا تتبدل . وقال إن القياس ما هو إلا وسيلة لتحقيق العدالة .

كما قال أيضاً بوجوب وجود قانون معروف للقضاة حتى لا يترك الأمر لاجتهادهم فيحدث التناقض في الأحكام .

كما تحدث ابن المقفع في كتابه هذا عن صحابة الخليفة ، وذكر : " أنهم ـ قبل خلافة أمير المؤمنين ــ قد أتوا بأفعال شنعاء ... مفسدة للسياسة داعية للأشرار طاردة للأخيار " . وتحدث أيضاً عن الخراج فنصح بمسح الأراضي وترتيبها حسب جودتها على أن يقرر على كل واحدة منها مقدار مناسب من المال ، على أن يدون هذا ويحفظ بكتب بديوان الدولة ، وقد رأى في هذا :

" ... صلاحاً للرعية وعمارة للأرض وحسماً لأبواب الخيانة وغشم العمال ... " .

وذهب إلى أن تولى الجند للخراج مفسدة لهم ، كما نصح بتعليم الجند وتفقيههم ، على أن يوضع لهم قانون فلا تنتشر بينهم الفوضى ، وحث الخليفة على مراعاة الكفاية في القيادة .

وعندما نشب الصراع السياسي بين الخليفة أبي جعفر المنصور وبين عمه ... الذي اضطر عم الخليفة في نهايته للتسليم على أن يكتب له الخليفة كتاب أمان ، ولجأ إلى كاتبه عبد الله بن المقفع فصاغ له هذا الأمان بدقة وإحكام .

ثم عرض الكتاب على الخليفة المنصور فلما تليت عبارة :

" ... وإن أنا نلت من عبد الله بن علي بـمكروه ... فأنا نفي من محمد بن علي بن عبد الله " ـ أي إنه لو نكث الخليفة عهده لكان ابن سفاح – .

ثار الخليفة وغضب وسأل : " من كتب هذا الأمان ؟ " .

فقيل له : " إنه ابن المقفع كاتب عيسى بن علي " .

فقال الخليفة المنصور : " فما أحد يكفنيه " . أي أنه قد عقد العزم على قتل ابن المقفع .

وذات يوم أراد عيسى بن علي قضاء حاجة لدى والي البصرة – الذي كان يبغض ابن المقفع – فكلف كاتبه ابن المقفع بقضاء هذا الأمر ، وتحرصاً من خيانة سفيان بن معاوية والي البصرة أخذ ابن المقفع رفيقاً معه .

فلما وصل الاثنان دار سفيان طلبا الإذن بالدخول فأذن لرفيق ابن المقفع أولاً ... ثم أذن لابن المقفع بعده .

فلما خرج رفيق ابن المقفع ولم يجده سأل عنه ، فقيل له أنه مضى إلى حال سبيله .

واختفى ابن المقفع فثارت ثائرة الناس ، وذهبوا إلى الخليفة المنصور يتهمون والي البصرة بقتل ابن المقفع ، ولكن الخليفة أنكر هذا الأمر ، فأتوه بالشهود ، فقال لهم الخليفة المنصور : " وماذا لو أني قتلت سفيان بن معاوية ثم ظهر ابن المقفع ، فهل أقتلكم بدمه " .

فأرهب هذا التهديد الشهود وخافوا فآثروا السلامة .

أما ما كان من أمر ابن المقفع ، فإنه لما أذن له بالدخول على سفيان بن معاوية ، اقتيد إلى مقصورة غير تلك التي بها رفيقه ، فإذا به وحيداً وسفيان يصرخ في وجهه : " والله يا بن الزنديقة لأحرقنك بنار الدنيا قبل الآخرة " .

فقال له ابن المقفع : " والله إنك لتقتلني فتقتل بقتلي ألف نفس ، ولو قتل مائة مثلك ما وفوا بأحد " . ثم أنشد :

إذَا مَا مَاتَ مِثْلِي مَاتَ شَخْصٌ يَمُوْتُ بِمَوْتِهِ خَلْقٌ كَثِيْرُ

وَأَنْتَ تَمُوْتُ وَحْدَكَ لَيْسَ يَدْرِي بِمَوْتِكَ لَا الصَّغِيْرُ وَلا الكَبِيْرُ

فقال له سفيان : " وقعت والله ... " .

ثم أمر بتنور وأخذ يقطع جسد ابن المقفع عضواً عضواً ويلقي به في التنور .

***

اغتيال الوزير أبي أيوب المورياني

أبو أيوب المورياني ، هو سليمان بن مخلد ، الذي ينتسب إلى قرية موريان بالأهواز بفارس .

وقد ظل المورياني يدنو من الخليفة المنصور حتى صار وزيره وصفيه ، مما أثار حقد البعض وحسدهم ، فدسوا له عند الخليفة .

ويروي ابن الأثير قصة طريفة عن وقائع اغتيال هذا الوزير ، فيقول : " ... كان سبب قبضه أن المنصور في دولة بني أمية ورد على الموصل وأقام بها مستتراً ، وتزوج امرأة من الأزد ، فحملت منه ، ثم فارق الموصل وأعطاها تذكرة وقال لها : إذا سمعتِ بدولة لبني هاشم فأرسلي هذه التذكرة إلى صاحب الأمر فهو يعرفها ، فوضعت المرأة ولداً سمته جعفراً ، فنشأ وتعلم الكتابة وما يحتاج إليه الكاتب .

وولي المنصور الخلافة ، فقدم جعفر إلى بغداد واتصل بأبي أيوب فجعله كاتباً بالديوان ، فطلب المنصور يوماً من أبي أيوب كاتباً يكتب له شيئاً ، فأرسل جعفراً إليه ، فلما رآه المنصور مال إليه وأحبه ، فلما أمره بالكتابة رآه حاذقاً ماهراً ، فسأله من أين هو ومن أبوه ، فذكر له الحال وأراه التذكرة ، وكانت معه ، فعرفه المنصور وصار يطلبه كل وقت بحجة الكتابة ، فخافه أبو أيوب ...

ثم إن المنصور أحضره يوماً وأعطاه مالاً وأمر أن يصعد إلى الموصل ويحضر والدته ، فسار من بغداد ، وكان أبو أيوب قد وضع عليه العيون يأتونه بأخباره ، فلما علم مسيره سير وراءه من اغتاله في الطريق فقتله ، فلما أبطأ على المنصور أرسل إلى (أمه) بالموصل من يسألها عنه ، فذكرت له أنها لا علم لها به إلا أنه ببغداد يكتب في ديوان الخليفة ، فلما علم المنصور ذلك أرسل من يقتفي أثره ، فانتهى إلى موضع وانقطع خبره ، فعلم أنه قتل هناك ، وكشف الخبر فرأى أن قتله من يد أبي أيوب ، فنكبه وفعل به ما فعل ..." .

وقد كانت بغداد حتى هذا الحين هي زهرة المدائن وعاصمة العالم وقبلة العلماء والشعراء وعن تشييد هذه المدينة يقول الطبري :

" لما نزل أبو جعفر المنصور الموضع الذي شيدت فيه مدينة بغداد فيما بعد ، قال : هذا موضع أبني فيه ، فإنه تأتيه المارة من الفرات ودجلة ، وجماعة من الأنهار ، ولا يحمل الجند والعامة إلا مثله ، فخطها وقد بناءها ، ووضع أول لبنة بيده ، وقال : بسم الله والحمد لله ، والأرض لله يورثها لمن يشاء من عباده والعاقبة للمتقين . ثم قال : ابنوا على بركة الله " .

وأورد الطبري أيضاً على لسان أحدهم ، يعدد المزايا الاستراتيجية لموقع العاصمة الجديدة ، فقال مخاطباً الخليفة :

" ... تجيئك الميرة في السفن من المغرب في الفرات ، وتجيئك طرائف مصر والشام ، وتجيئك الميرة في السفن من الصين والهند والبصرة وواسط في دجلة ، وتجيئك الميرة من أرمينية وما اتصل بها في ثأمرا ، حتى يصل إلى الزاب ، وتجيئك الميرة من الروم وآمد والجزيرة والموصل في دجلة ، وأنت بين أنهار لا يصل إليك عدوك . وأنت بين دجلة والفرات لا يجيئك أحد من المشرق والمغرب إلا احتاج إلى العبور ، وأنت في متوسط للبصرة وواسط والكوفة والموصل والسواد كله ، وأنت قريب من البر والبحر والجبل ... " .

أما عن خطوات بناء بغداد فيقول الطبري :

" ... أن المنصور وجه في حشر من الصناع والفعلة ، من الشام والموصل والجبل والكوفة وواسط والبصرة ، فأُحضِروا، وأمر باختيار قوم من ذوي الفضل والعدالة والفقه والأمانة والمعرفة بالهندسة ، فكان ممن أحضر لذلك الحجاج بن أرطأة وأبو حنيفة النعمان بن ثابت . وأمر بخط المدينة وحفر الأساسات ، وضرب اللبن وطبخ

الآجر فبُدئ بذلك ، وكان أول ما ابتُدئ به في عملها سنة خمس وأربعين ومائة . وذكر أن المنصور لما عزم على بنائها أحب أن ينظر إليها عياناً فأمر أن يخط الرماد ، ثم أقبل يدخل من كل باب ، ويمر في فصلانها وطاقاتها ورحابها ، وهي مخطوطة بالرماد ، ودار عليهم ينظر إليهم وإلى ما خط من خنادقها ، فلما فعل ذلك أمر أن يجعل على تلك الخطوط حب القطن ويصب عليها النفط ، فنظر إليها والنار تشتعل ، ففهمها وعرف رسمها ، وأمر أن يحفر أساس ذلك على الرسم ، ثم ابتُدئ في عملها " .

وعن شكل مدينة بغداد يقول الطبري في موضع آخر ، بعد أن يذكر أن المنصور حمل خمسة أبواب حديدية من مدينة أخرى ، ثم نصبها على بغداد : " ... وللمدينة ثمانية أبواب : أربعة داخلة وأربعة خارجة ، فصار على الداخلة أربعة أبواب من هذه الخمسة ، وعلى باب القصر الخارج الخامس منها ، وحين على باب خراسان الخارج باباً جيء به من الشام من عمل الفراعنة ... " .

ثم يضيف : " ... وبنيت المدينة مدورة لئلا يكون الملك إذا نزل وسطها إلى موضع أقرب منه إلى موضع ... " .

" ... وعمل لها سورين ، فالسور الداخل أطول من السور الخارج ، وبنى قصره في وسطها ، والمسجد الجامع حول القصر " .

ويذكر الطبري تكاليف تشييد بغداد ، فيقول :

" ... أنه أنفق على مدينة السلام وجامعها وقصر الذهب بها والأسواق والفصلان والخنادق وقبابها وأبوابها أربعة آلاف ألف وثمانمائة وثلاثة وثلاثين درهماً ... " . أي ما يقرب من خمسة ملايين درهم .

أما عن اسم المدينة : " بغداد " ، فيقول مكسمليان شتريك :

" إن أبسط التفاسير وأقربها احتمالاً هي عبارة (عطية الله) أو (هبة الله) . إن الأسر المتكلفة للمدينة التي انتفع بها ياقوت والبكري ويمكن أن تنقسم إلى قسمين :

أ – بغداد، بكداذ ، بغدان ، بغدين .

ب – مغداد ، مغداذ ، مغدان .

ويذكر مكسمليان شتريك عدة معانٍ للفظ بغداد ، منها أن عطية الله منبع اسم إله وداد ، بمعنى العطية . أو هبة بغ ، وبغ ملك من ملوك الصين ، أو أنها تعني بغ دازوية ، أي بستان دازويه ، أو هبة البساتين ، حيث إن كلمة باغ بالفارسية تعني البستان .

***

جلد الأمام مالك

واغتيال الإمام أبي حنيفة

الإمام مالك

هو مالك بن أنس بن مالك بن عمرو ، وينتسب إلى قبيلة ذى أصبح اليمانية وقد ولد بالمدينة ودفن بها وهناك وفيها أيضاً تلقى علومه . وقد عاصر الخليفة الأموى الوليد بن يزيد بن عبد الملك وامتد به العمر حتى عهد الخليفة العباسى أبي جعفر المنصور . ومما يُروى من النوادر أن المغنى حسين بن دحمان الأشقر كان ذات يوم يمشي في المدينة ، فغنى لحناً للمغنى طويس ــ وكان طويس قد مات ــ وأنشد :

مَا بَال أهْلكِ يَا رَبَابُ خزرَا كَأَنَّهُم غضَابُ

فإذا بطاقة في باب تفتح ، وإذا الأشقر يرى وجه رجل ذي لحية حمراء ، وإذا بالرجل قد استشاط غضباً ونهر الأشقر وقال له : " يا فاسق أسأت التأدية ، ومنعت القائلة ، وأذعت الفاحشة " . ثم أخذ الرجل ذو اللحية الحمراء يغني ، فظن الأشقر أن (طويس) قد بعث وعاد للحياة .

ولما انتهى الرجل من الغناء قال له الأشقر :

" أصلحك الله من أين لك هذا الغناء " .

قال : " نشأت وأنا غلام حدث ، أتبع المغنين ، وآخذ عنهم ، فقالت لي أمي : إن المغني إذا كان قبيح الوجه لم يلتفت إلى غنائه ، فدع الغناء واطلب الفقه ، فإنه لا يضر مع قبح الوجه . فتركت المغنين واتبعت الفقهاء ، فبلغ الله بي عز وجل ما ترى " . فقال له الأشقر : " فأعد جُعلت فداءك " .

قال : " لا ، ولا كرامة ، أتريد أن تقول أخذته عن مالك بن أنس " .

وكان مالك قد أقبل على تلقي العلم ، فحفظ القرآن وهو مازال صغيراً ، وكان يسمع أحاديث النبي ﷺ فيحفظها ، وقد روي عنه أنه كان يسمع ثلاثين حديثاً فيحفظها جميعاً ، وكان لشدة حبه للعلم ينتظر ساعات طوالاً أمام باب معلمه (ابن هرمز) ، حتى يستطيع الدخول إليه وقد تلقى مالك بن أنس علومه على يد كثير من الفقهاء منهم محمد بن مسلم الزهري ، وربيعة الرأي ، ونافع مولى عبد الله بن عمر .

وسرعان ما نبغ مالك وتفوق ، حتى صار له درسه الخاص الذي كان يسعى إليه شيوخ مالك الذي تلقى عنهم العلم مثل يحيى الأنصاري ، والزهري ونافع ...

" ليس كل من أحب أن يجلس في المسجد للحديث والفتيا جلس حتى يشاور فيه أهل الصلاح والفضل والجهة من المسجد ، فإن رأوه لذلك أصلاً جلس ، وما جلست حتى شهد لي سبعون شيخاً من أهل العلم أني موضع ذلك " .

كان هذا ما ما قاله الإمام مالك بعد أن تبوأ مكانه للفتوى فى مدينة رسول الله ﷺ .

وكان من خلق الإمام مالك أن يتأنى ويتروى كثيراً قبل أن يقول رأيه في مسألة من مسائل الدين ، وكان يقول :

" ما من شيء أشد عليَّ من أن أسأل مسألة من الحلال والحرام ؛ لأن هذا هو القطع في حكم الله " .

وقال أيضاً : " إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذونه ، لقد أدركت سبعين ممن يقول : قال رسول الله ﷺ عند هذه الأساطين فما أخذت عنهم شيئاً ، وإن أحدهم لو ائتمن على بيت مال لكان أميناً ، إلا إنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن " .

وكذلك يشهد الإمام الشافعي لمالك بن أنس في ذلك فيقول : " كان مالك إذا شك في شيء من الحديث تركه " .

والإمام مالك يأخذ أولاً بالقرآن ، ثم سنة الرسول ﷺ ، ثم إجماع أهل الفقه والعلم ، ثم يأخذ بما يفعله أهل المدينة ويتلو ذلك بالقياس ثم الاستحسان والعرف وسد الذرائع والمصالح المرسلة .

وسطع اسم مالك في سماء المدينة المنورة وصار إمامها ومفتيها .

وذات يوم التقى الخليفة أبو جعفر المنصور الإمام مالك ، وكان أن دار حديثٌ في الدين بين الخليفة والإمام إلى أن قال الخليفة أبو جعفر المنصور للإمام مالك :

" يا أبا عبد الله ، ضع هذا العلم ودونه ، ودون منه كتباً ، وتجنب فيه شدائد عبد الله بن عمر ورخص عبد الله بن عباس وشواذ عبد الله بن مسعود واقصد إلى أواسط الأمور ، وما اجتمع عليه الأئمة والصحابة رضي الله عنهم لنحمل الناس إن شاء الله على علمك وكتبك ، ونبثها في الأمصار ونعهد إليهم ألا يخالفوها ، ولا يقضوا بسواها " .

فعكف الإمام مالك على تسجيل علمه وتدوينه أحد عشر عاماً ، ثم خرج بكتابه العظيم " الموطأ " الذي يعتبره الكثيرون أول مؤلف في الإسلام له نسب معروف .

وقد قال الإمام مالك عن كتابه " الموطأ " : أما أكثر ما في الكتاب فرأي ، لعمري ما هو برأيي ولكن سماع من غير واحد من أهل العلم والفضل والأئمة المقتدى بهم الذين أخذت عنهم ، وهم الذين كانوا يتقون الله تعالى . وكثر عليَّ قلت رأيي ، وكان رأيهم مثل رأيي مثل رأي الصحابة الذين أدركوهم عليه ، وأدركتهم أنا على ذلك . فهذه وراثة توارثوها قرناً عن قرن إلى زماننا ، فهو رأي جماعة من تقدم من الأئمة " .

ويقول الإمام الشافعي عن كتاب " الموطأ لمالك " :

" ما في الأرض كتاب في العلم أكثر صواباً من موطأ مالك " .

ومما يروى أن الخليفة هارون قد أعجب بكتاب " الموطأ " واشتد عجبه به ، حتى إنه أشار على الإمام مالك بتعليقه على الكعبة .

وكان الإمام مالك يكره الخروج من المدينة ، ولا يحب السعي إلى ولاة الأمور والحكام حتى إن والي المدينة وقف بباب مالك فأرسل إليه خادمته تبلغه : " ... إن كان لديك

مسألة فارفعها في رقعة يخرج إليك الجواب ، وإن كان للحديث فقد عرفت يوم المجلس فانصرف ... " .

وقد شاء الخليفة هارون يوماً ـ وهو بالمدينة ـ لقاء الإمام مالك ، فبعث إليه برغبته ، فقال الإمام لرسول الخليفة : " قل لأمير المؤمنين إن طالب العلم يُسعى إليه ، أما العلم فلا يسعى إلى أحد " .

وكان أن انصاع الخليفة لرغبة الإمام ، فذهب إلى داره ولكنه شاء الاختلاء به ، فرفض مالك بن أنس خروج من كان عنده إرضاء للخليفة هارون ، وقال :

" إذا مُنع العلم عن العامة فلا خير فيه للخاصة " .

***

وكان أحد زعماء البيت العلوي يُدعى عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب قد أصر على رفض الخلافة العباسية ، بل وآمن أن أحد أبنائه أجدر وأحق بالخلافة ، وكان إيمان عبد الله بخلافة ابنه محمد السبب في إلقاء الخليفة أبي جعفر المنصور القبض عليه والزج به في السجن . وحاول الخليفة مراراً إجبار عبد الله على البوح بالمكان الذي كان ابنه قد اختفى فيه ، إلا إن عبد الله صمم على كتمان أمر ابنه .

أما محمد بن عبد الله ، الذي اشتهر بالنفس الزكية ، فكان قد اختفى في المدينة ، وظل المنصور جاداً في البحث عنه ، حتى إنه عزل ولاته على المدينة عدة مرات لفشلهم في الظفر بمحمد النفس الزكية ، أو لتسترهم عليه .

وفجأة ، يظهر محمد النفس الزكية بالمدينة في عام 145هـ ، ويدعو الناس إلى مبايعته بالخلافة ، فيبايعه كثيرون . وفيما يبدو أن بعض أهل المدينة قد آثروا استفتاء الإمام مالك بن أنس في أمر البيعة هذه ، والمنصور له في أعناقهم بيعة ، فإذا بالإمام مالك يفتيهم بفساد بيعتهم للمنصور ، حيث إنهم بايعوه مكرهين . وكان لفتوى مالك أثرٌ بالغ في التفاف أهل المدينة حول النفس الزكية ، الذي اتخذ لقب " أمير المؤمنين " .

أما مالك بن أنس ، فقد تم جلده فيما بعد جزاءً له على فتواه تلك .

أما محمد النفس الزكية فكان قد استولى على المدينة ، وعزل واليها من قبل المنصور . وكان أن بعث المنصور إليه يطلب منه إنهاء ثورته والدخول في طاعته ، فيرد محمد النفس الزكية بالرفض ؛ فأرسل المنصور جيشه ، بقيادة ولي عهده عيسى بن موسى ، للقضاء على ثورة المدينة . وتقع معركة بين الطرفين ، وتنتهي لصالح جيش الخليفة واندحار الثائرين ومقتل زعيمهم النفس الزكية ، واجتزاز رأسه .

أثناء ذلك كان الابن الثاني لعبد الله بن الحسن - ويدعى إبراهيم قد أعلن الثورة في البصرة ، التي دخل أهلها في طاعته ، وامتد نفوذ إبراهيم ليشمل الأهواز وفارس ، ثم جاء نبأ وفاة أخيه النفس الزكية بعد أيام من إعلان ثورته .

أما الخليفة المنصور فقد استدعى جيوشه وأرسلها – بقيادة ولي عهده – لقتال إبراهيم ابن عبد الله ، الذي خرج أيضاً بجيش من أنصاره لمحاربة الخليفة بغية القضاء على دولته . والتقى الجيشان – في نفس عام الثورة : 145هـ - على مقربة من الكوفة ، فاقتتلا ، فكان النصر من نصيب إبراهيم في بادئ الأمر ، إلا إنه ما لبث أن انهزم وقُتل ، واجتزت رأسه هو أيضاً ، وأرسلت إلى أبيه عبد الله في السجن .

وكان من أهم المحرضين لإبراهيم على الثورة على الخليفة المنصور ، إمام من أئمة الإسلام ، يضارع الإمام مالك بن أنس ، وله نفس قدره ومنزلته في نفوس الناس ، وهو :

وكان أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن النعمان قد وُلد بالكوفة عام 80 هـ ، وقد حفظ القرآن ثم عمد إلى دراسة الفقه واللغة . وقد بلغ أبو حنيفة منزلة عظيمة في علوم الدين حتى أنه صار يُلقب بالإمام الأعظم .

وقد عاصر أبو حنيفة الخليفتين الأمويين يزيد بن عبد الملك وهشام بن عبد الملك ، كما عاصر الإمامين محمد الباقر وجعفر الصادق . وامتد به العمر حتى عهدي الخليفتين العباسيين أبي العباس السفاح وأبي جعفر المنصور . كما رفض أن يعمل قاضياً لدى هشام ، فقام ابن أبي هبيرة وضربه بالسوط وتوعده ففر إلى مكة . وكما رفض أبو حنيفة منصب القضاء في ظل الحكم الأموي ، فإنه رفض أيضاً طلب الخليفة العباسي المنصور بتولي القضاء .

وعن مذهب الأخذ بالرأي الذي كان هو نفسه من أول مؤسسيه ، يقول أبوحنيفة :

" إني آخذ بكتاب الله إذا وجدته ، فما لم أجده فيه أخذتُ بسنة رسول الله ﷺ ، فإذا لم أجد فيها أخذت بقول أصحابه مَن شئت ، وادع قول مَن شئت ، ثم لا أخرج من قولهم إلى قول غيرهم ، فإذا انتهى الأمر إلى إبراهيم ، والشعبي والحسن وابن سيرين وسعيد بن المسيب ، فلي أن أجتهد كما اجتهدوا " .

وقد كان الإمام أبو حنيفة مناصراً للعلويين ولا يرى لبني أمية حقاً ولا سلطاناً . كذلك اتخذ موقفاً سلبياً تجاه العباسيين لما اشتد ظلمهم للعلويين ، وكان من مناصري محمد بن عبد الله النفس الزكية .

يقول الإمام محمد أبو زهرة : " وننتهي من الكلام السابق أن أبا حنيفة شيعي في ميوله وآرائه في حكام عصره ، أي إنه يرى الخلافة في أولاد علي من فاطمة ، وأن الخلفاء الذين عاصروه قد اغتصبوا الأمر منهم وكانوا لهم الظالمين " .

ومما يُروى أن الخليفة المنصور حنق على الإمام أبي حنيفة لموقفه من الثورة عليه ، فأمر باستدعائه إلى بغداد ، حيث دسَّ له سماً في عسل ، فمات أبو حنيفة .

***